فلسفة الحجّ وأسرار مناسكه

عباس علي عميد الزنجاني

إنَّ البحث في مسألة الحجّ ومكانته في الشريعة الإسلامية وإن بدا مختصراً وموجزاً، وكذلك البحث في موقعه من الأحكام والفرائض الإسلامية والاهتمام البالغ الذي أبداه الوحي والقرآن والسنّة تجاه الحجّ، ودراسة ماهية وعمق أحكام الحجّ وشعائره والقدم التأريخي الذي يتمتّع به الحجّ، والعلاقة الوثيقة والصّحيحة الّتي تربط الحجّ بأصل التوحيد، كلّ ذلك يمكنه أن يوضّح لنا الخلفيّة لأفق الفلسفة الواسعة الّتي يمتلكها الحجّ، وبحور أسراره العميقة الأغوار والمكنونة في مضمون هذه الشعيرة والعبادة.

لاشكّ في أنّ الحجّ هو أحد أكبر الفرائض الإسلامية[١]، وأعظم شعائر الدين[٢]، وأفضل الأعمال التي يُراد بها التقرّب إلى الله تعالى[٣]، وهو ركنٌ من أركان الدين[٤]، وتركه ارتكابٌ لكبيرة من الكبائر[٥]، ممّا يتسبّب في خروج المرء عن جادّة الإسلام والمسلمين[٦]، ويؤدّي إلىٰ كفره[٧].

ذلكم هو الحجّ الذي يكافح ويناضل المسلم في سبيل أداء مناسكه، ويتمرّغ علىٰ تراب الذُلّ ويُحمِّلُ نفسه مشقّة وتعباً عظيمين، ويعاني مرارة الغُربة والهجران، ويمسك عن جميع ميوله ولذّاته، ويمتنع عن كثير من عاداته وطبائعه، باذلاً القدر الأكبر من مصاريفه لذلك، ويتحمّل أعباءَ حجّة مهما بلغت صعوبتها من أجل تنفيذ أمر من أوامر الباري عزّوجلّ[٨].

ومع أنَّ الحجَّ يبدو وكأنّه عبادة من العبادات الأخرىٰ، إلّا أنَّ هذه العبادة تجمع في جنباتها ـ في الواقع ـ عبادات كبيرة عِدّة[٩]، ولا يمكن لأيّ عبادة أن توازيه في ذلك[١٠]، ولا ثواب لهذه الفريضة سوىٰ حيازة رضوان الله ودخول جنّته[١١]، كما قال رسول الله ﷺ: «**لو أنفقتَ في سبيل الله بحجم جبل أبي قُبيس ذهباً، فإنّك لن تصل مرتبة الحاجّ وما يحوزه من القَدر**»[١٢].

إنّه الحجّ الذي يُزيح عن كاهل المؤمن الكثير من المعاصي الكبيرة بأدائه هذه الفريضة، يمحو عن قلبه كلّ صَدإ سبّبته سيئاته فيكون كمن ولدته أمّه توّاً[١٣]، ولا تكتب ضدّه سيئة أخرىٰ حتّىٰ مرور أربعة أشهر ما دام الحاجّ لم يرتكب كبيرة إثر ذلك، وتكتب له عوضاً عن ذلك حسنات كثيرة[١٤].

لقد كان الحجّ فريضة مفروضة في أولى الشرائع الإلهيّة، وأدّاه الملائكة وآدم وحوّاء وأنبياء الله جميعاً علىٰ أكمل وجه[١٥] وأدخَلَ إبراهيم إمام الموحّدين تعديلات عليه وَجدَّده[١٦] وأُمِرَ إسماعيل بالتمهيد لإقامة تلك الشعيرة المقدّسة[١٧]، وقد أدّى الرسول الأكرم ﷺ شعائر هذه الفريضة مرّات عديدة رغم كلّ الصعوبات الّتي واجهته[١٨] وسعىٰ مدىٰ سنوات طوال لتثبيت هذه الفريضة، وتهيئة المسلمين لإقامة الحجّ الحقيقي. ووُفّق أخيراً وبعد الحوادث المريرة، والغزوات المتعدّدة. وبعد جهاد بالنّفس والمال والرّوح، وبذل أغلى الشهداء والأعزّاء، وقادة وروّاد الإسلام، وُفِّقَ بالدخول إلىٰ مكّة في السنة

الثامنة من الهجرة، وتمّ فتحها من قِبَلِ المسلمين، فأدّىٰ ﷺ حجة الوداع بعد ذلك في السنة التاسعة للهجرة بصحبة آلاف مؤلّفة من المسلمين والصحابة[١٩]، بكلّ إجلال وأبّهة في جوٍّ تملأه المعنويات الطاهرة، والإخلاص التامّ ممزوجاً بالقُدرة والسلطان الكبيرين للإسلام[٢٠].

ومع وجود نفي الإكراه في الدّين[٢١]، وطبقاً لسيرة الرسول الأكرم ﷺ المبيّنة علىٰ أساس ترك إجبار النّاس علىٰ فعلٍ يكرهونه[٢٢]، وقول أمير المؤمنين عليه السلام الواضح في هذا المجال وهو «لستُ أرىٰ أن أجبر أحداً علىٰ عملٍ يكرهه»[٢٣]، فإنّ الوالي والحاكم بإمكانه اجبار جماعة بالفعل؛ ذلك من أجل إحياء حجّ بيت الله الحرام[٢٤].

حقّاً إنَّ الحجَّ اختبارٌ كبير لعباد الله[٢٥]، إذ يتعامل الإنسان في الحجّ مع الحجارة والصحراء والصخور والحصىٰ الّتي لاتضرّ ولاتنفع[٢٦] وظلّت الأعمال الّتي يمارسها الحاجّ موضع دهشة الكثير من العقائد الضالّة[٢٧].

الحجّ هو زيارة بيت الله الحرام[٢٨]، البيت الذي يبدو وكأنّه يُعبد كما تلوح به الأعمال في الحجّ[٢٩]، ومثابة للناس وأمناً وقبلةً يتوجّه نحوها الجميع في عباداتهم[٣٠]، وشعبة من جنّة الرضوان[٣١]، والطريق المؤدّي إلىٰ غفران الله[٣٢] ومجمع عظمته وجلاله[٣٣]، وأوّل بقعة خُلقت في الأرض[٣٤].

وكان إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام المنادي للحجّ[٣٥] حيث لبّت نداءَه كلّ النّطف الطاهرة عبر التأريخ[٣٦] وكانت الملائكة تؤدّي ذلك قبل آدم أبي البشر بآلاف السنين الطويلة[٣٧].

ويجذب الحجّ نحوه، كما هو الحال مع متشابه آي القرآن مقارنة مع محكمه، كلّ الأفكار عِبْرَ زوايا ومنعطفات وأبعاد مختلفة، فيخلّف وراءه الخلود والأثر البالغ والتهذيب والحداثة الدائمة في بؤر التأريخ المندثرة.

وليس الحجّ لغةَ عقيدة معيّنة، أو دستوراً مُحدّداً أو قيماً متفرّقة فحسب، بل هو مرآةٌ تعكس وجهات النظر لكلّ المدارس والمذاهب، وصورة مُصغّرة لكلّ ما يحتويه الإسلام، ذلك الإسلام الذي خرج بشكل قرآن مجيد مُبيّن الكلمات، وواضح الأسلوب، وتجلّىٰ في قالب الإمام والإمامة فصار حركات وملامح تمثّلت في الحجّ. ويبدو أنّ كلَّ ما أراد الله تلقينه للبشر وتفهيمه إيّاه، قد صبّه في قالب يُدعى الحجّ.

ذلكم هو الحجّ الذي يسير فيه مخلوق في منتهى الصِغر نحو اللّانهاية عِبر سَفَرٍ لاينتهي، فتجسّد خلاله فلسفة خَلق بني آدم فيصوغه مشابهاً للتاريخ والعقيدة والأمّة، والمُخرج لكلّ تلك الأحداث هو الله سبحانه، ولغة التمثيل هي الحركة، وشخصياتها وأبطالها هم آدم وإبراهيم الخليل وهاجر وابنها إسماعيل، ومن ثمّ إبليس الذّليل، والماكياج والملابس هما الإحرام، والممثل في المشهد الفردي ذاك الذي هو قطرة في وسط اليمّ هو أنتَ أيّاً كنتَ[٣٨].

نعم، إنَّ الحجّ هو انموذجٌ مصغّر من هيكل الإسلام ككلّ، كما سمّاه الرسول الأكرم ﷺ ووصفه بأنّه الممثّل الوحيد لكلّ شريعة الإسلام[٣٩].

ومعَ أنَّ كلاً مسؤولٌ عمّا انفق[٤٠]، وصرف في يومٍ يُحاسبُ فيه حتّىٰ الأنبياء[٤١]، إلّا أنّه لايُسئل عن المال المصروف في سبيل تأدية الحج وإقامة شعائره[٤٢]، ذلك لأنَّ ترك هذه الفريضة يؤدّي إلىٰ بروز الفِتن وتسعيرها[٤٣] وإيجاد المهلكة والفجائع بصورة عامّة[٤٤].

فالحجّ تفسيرٌ[٤٥] لآية ﴿ففرّوا إلى الله إنّي لكم نذيرٌ مبين﴾[٤٦] وبيانٌ ومصداقٌ[٤٧] لـ ﴿ربّ لولا أخّرتني إلىٰ أجلٍ قريبٍ فاصَّدَّق﴾[٤٨] وأخيراً فهو ﴿قياماً للناس﴾[٤٩] ورمز قوّتهم وعزّتهم[٥٠].

وهكذا، فلا يمكن للحجّ أن يكون مجرّد عمل عاديّ، وعبادة بسيطة،

وشعيرة ظاهرية بحتة. إنَّ سبر أغوار ما ذكر من الأمور سابقاً يُجسّد لنا هذه الحقيقة وهي: أنَّ الحجّ يمتلك روحاً وعقلاً وفلسفة عميقة وراقية، وله أسرارٌ وحكمٌ ولطائف قيّمة جمّة وأهداف وفوائد ونتائج حياتية كبيرة، ألقت بظلالها علىٰ حياة الإنسان في البعدين المادّي والمعنويّ، وبالنفوذ ببصيرة إلىٰ أعماق تلك الأعمال الظاهرية. وبالوصول إلىٰ باطن تلك الأعمال يمكننا تفهّم إشاراتها والمشار إليه فيها على السّواء.

﴿إنّ في ذلك لذكرىٰ لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد﴾[٥١].

مصادرنا في الحصول علىٰ فلسفة الحجّ وأسراره:

إنَّ ميزة التفكّر والتعقّل اللتين هما رسول الإنسان في باطن وجوده، وإن كانتا غير عاجزتين عن البحث في فلسفة الحجّ وأسراره المعقدة والعميقة، والآثار الحياتية الكبيرة له وأهدافه في مختلف أبعاده، وكذلك بواسطة تحليل منطقي بعد التنبّه إلىٰ ماهية هذه المراسيم والمناسك والعناصر الأساسية المُشَكِّلة لها، والعلائق والكنايات والإشارات الخاصّة به، كلّ ذلك سوف يمكّننا حتماً من التعرّف على الكثير من هذه الحكم والأسرار. ولكن ونظراً لكون المعطيات والنتائج الحاصلة من ذلك هي عقلية بحتة، لاتخلو أن تكون تلك المعطيات ملوّثة بالإشكالات والهفوات و«دين الله لا يصابُ بالعقول»[٥٢]، ولذا فإنّنا اتّبعنا خطّ سيرٍ أكثر أماناً للحصول علىٰ فلسفة الحجّ وأسراره، وسنقوم ببحث وتقصّي أحكام وأسرار الحجّ بالاعتماد علىٰ نفس المصادر الّتي استخرجنا منها أحكامه ومناسكه.

ولحسن الحظّ فإنّ الوحي (الكتاب والسنّة) لم يتركانا سدًى في هذا المجال، حيث وضّحا لنا قسماً كبيراً من أسرار هذه العبادة وآثارها وأهدافها السامية في

الحياة الإنسانية.

ولن نستند في بحثنا هنا ـ فيما يتعلّق بفلسفة الحجّ وأسراره ـ على النظرة العقلية والتفسير والتوجيه العقلانيّين، بل سنسعىٰ إلىٰ توضيح جزء من بحر لطائف وأسرار وأهداف ونتائج الحجّ الواسع مستفيدين من النّصوص الّتي بحوزتنا والمستخرجة من آيات الكتاب، ومتون الأحاديث ونتعرّف علىٰ جانب من روح وعقل هذه العبادة الجماعية.

ما الذي نستشفّه من فلسفة الحجّ؟

عندما نتعرّف علىٰ فلسفة وأسرار روح الحجّ، ونحصل على الأهداف العُليا لشريعة الإسلام المقدّسة من خلال هذه الفريضة المهمّة، فإنّنا حينئذ لن نسمح لأنفسنا بالاكتفاء في أداء مراسيم شكليّة وأعمال جافّة تنقصها الروحية المطلوبة، فنشهد سنوياً هدر كثير من الطاقات والإمكانات دون الاستفادة من الآثار العظيمة التي تخلّفها هذه المراسيم الجليلة في نفوسنا.

إنَّ بحث فلسفة الحجّ يمكننا من التعرّف علىٰ أنَّ هذا الحجّ هو حجٌّ صوريّ لا حياة فيه وعارٍ من الحقيقة والعبودية، وأنّه حجٌّ جاهليّ، أو أنّه هو الحجُّ الإسلاميّ النبويّ المطلوب، وأنّه حجٌّ يُمكنه بحقّ أن يكون حجّة الإسلام، ومحتوياً علىٰ تلك الروح العظيمة والتأثيرات الإيجابية في طريق تحقيق الأهداف المتوخاة من حجّة الإسلام، وحجّاً يكون مَعْلَماً وحَلّاً جذريّاً للفرد والأمّة علىٰ سواء للوصول إلىٰ الأسرار والنتائج الرفيعة.

لكنَّ الحجّ الذي يقام كلّ سنة، بتشريفاته وتشكيلاته وأصدائه الرّنانة وزخرفه الجذّاب، هذا الحجّ ليس فاقداً للروح المعنوية المطلوبة والمتوخاة منه، وليس خالٍ من الفلسفة وعارٍ من كلّ نوع من النتائج الإيجابية الخلّاقة وحسب،

بل إنَّ مثل هذا الحجّ الذي يكون مخالفاً للأصول والأهداف الإسلامية، وملوّثاً بارتباطاته المشبوهة، ويركن إلى الاستكبار والغطرسة العالمية، ويُقام في جوٍّ من الميولات الدنيئة للروح الفاسدة في عالم المادّة والنسيان والجهل والمظالم والظُّلم والنّفاق، والاعتماد علىٰ كلّ الإمكانات والوسائل لِعَزل الإسلام العظيم المُعين للمظلوم والمعادي للظالم، إنَّ حجّاً كهذا لايمكن اعتباره حجّاً إسلامياً مقارنة مع بحثنا لفلسفة وأسرار الحجّ، ولن نرضىٰ بحجّ جاهلي كهذا لأن يكون بديلاً للحجّ الإسلامي الواقعي والحقيقي (٥٣).

يقول ابن عبّاس: رأيت رسول الله ﷺ في حجّة الوداع وقد أمسك بباب الكعبة، فالتفت نحو النّاس وذكر حوادث تقع في المستقبل لأناس آخر الزّمان، وذكر ضمن حديثه شيئاً عن حج آخر الزّمان قائلاً:

«يحج أغنياء أمّتي للنزهة، ويحجّ أوساطها للتجارة، ويحجّ فقراؤهم للرياء والسّمعة» (٥٤).

لقد كان قلق الرسول الكريم ﷺ من حيث إنَّ الحجّ بهذا الشكل سيفقد عناصره وروحه وحقيقته، وبدل من أن يكون الحجّ خلّاقاً وبنّاءً، سيتّخذ سبيلاً للوصول إلى الأهداف الدنيئة.

فإذن، ما هو ردّ فعلنا علىٰ وضع الحج الذي يؤدّيه المسلمون اليوم، والذي تسعىٰ بعض الجهات إلىٰ تحويله عن أهدافه الإسلامية الأصيلة، بعد أن أبدىٰ رسول‌الله ﷺ قلقه حول تبدّل الحجّ العبادي وتحوّله إلىٰ سفرة ورحلة استجمام؟

ما هي المعايير والأسس التي نستطيع بواسطتها تمييز الحجّ عن غيره، وأنّه قد غيّر مسيره وهدفه المنشود أم لا، وأنّه أي الحجّ، هو نفسه الحجّ الذي أوصىٰ به رسول‌الله ﷺ، وكيف يتسنىٰ لنا تمييزه عن الحجّ الذي أقلق الرسول ﷺ آنذاك؟

هل يمكننا ذلك ببحث فلسفة الحجّ وأسراره وآثاره الحياتية وحسب،

فيرتدّ الشيطان علىٰ عقبيه ويخسأ الخاسئون؟

العلم بفلسفة الأحكام لا يتنافىٰ وروح التعبّد:

إنَّ سيرنا قدماً للتحقيق في فلسفة الأحكام يتأتىٰ بعد تسليمنا ودون جدل بأنَّ الحجّ وفرائض الإسلام الأخرىٰ هي أوامر إلٰهية علينا تنفيذها دون تردّد أو نقاش، فيكون بحثنا هذا لا لتضعيف روح التعبّد بل تقويته لامحالة.

إنَّ تعرّفنا علىٰ فلسفة الأحكام ليست من أجل الحصول علىٰ تلك النتائج والمنافع والعِلل عبر أدائنا للفرائض، بل لكي تُنفّذ أوامر الله ـ والّتي نريد بها قصد التعبّد والتقرّب من الله عزّوجلّ وهو الدافع الأساس لعملنا هذا ـ بشكل يَدرّ علينا بالنتائج والآثار المذكورة آنفاً.

فهذا التفكُّر لايؤثّر لا على الإخلاص ولاعلىٰ روح التعبّد ولا يتسبّب في تضعيفه، ذلك أنَّ معرفة فلسفة ونتائج حكمٍ ما ليست دليلاً على العمل ولاهدفاً أو غاية له. إنَّ دليل العمل هو أمر الوحي، وهدفه وغايته هما التقرّب إلى الله وإطاعة أمره وعبادة الخالق (٥٥).

علاوة علىٰ ما قيل، فإنَّ الوحي نفسه قد فتح هذا الطريق أمام العقل، وقد ذكر الكثير من الأمور الفلسفية والآثار والغايات والمنافع المختلفة في القرآن الكريم لأحكام كثيرة، كتحريم الخمر، والقمار، والرّبا، والغيبة، وتشريع الحجاب، والقصاص، والشهادة، والحجّ، والصلاة، والصوم، وكذلك وردت تلك الأمور في مختلف الأحاديث النبويّة الشريفة، ولعلّ كتاب علل الشرائع للمؤلّف القدير الشيخ الصدوق عليه الرحمة كان مثالاً حيّاً لنماذج من هذه الأحكام.

والواقع أنّنا لا نعدّ ما توصلنا إليه عن هذا الطريق نهايةً لمطافنا، ولانطبع ما نصل إليه عن طريق العلم والعقل بطابع الأصالة، كما لا يمكن لفلسفة الحجّ أن

تكون مدعاة لأبسط تغيير في شكل الحجّ.

فممّا لا شكّ فيه أنَّ أعمال الحجّ وأحكامه ومناسكه قد اتخذت قالباً وشكلاً تعبدياً ثابتاً وغير قابل للتغير، فحلال محمّد ﷺ حلالٌ إلىٰ يوم القيامة وحرام محمّد حرام إلىٰ يوم القيامة (٥٦).

ولكن في الوقت الذي تُرفض فيه عملية التمسّك بظاهر العبادة ونفي روحها وفلسفتها، فإنَّ أيَّ تدخّل أو تصرّف لتغيير الشكل الظاهري لتلك العبادة والأعمال والمراسم المتعلّقة بالحج، بحجة التفلسف والوصول إلىٰ أسرار وأهداف الحجّ ونتائجه القيّمة، محكوم بالرفض ومردود كذلك.

إنَّ مانبغيه في بحثنا هذا هو الابتعاد عن الإفراط والتفريط، واتّخاذ مسلك وسط بينهما والمبنيّ على الصراط المستقيم للتعبّد في جميع ظواهر الشّرع.

وبالرغم من سكوت الوحي في الإفصاح عن بعض تلك الأحكام وبيان حكمتها، وكذلك الحال بالنسبة إلى الحجّ وأبعاده المجهولة وجزئيّات أحكامه التي لم نتعرف بعد علىٰ فلسفتها وأسرارها. فإنّنا لا نتيح المجال للشكّ من الولوج إلىٰ داخلنا لمجرّد أنَّ فلسفة هذه الأحكام ليست واضحة، ولن نسمح لها بمساس إيماننا بحقّانيّة وضرورة التبعيّة وحتّى التقيّد بقالب وشكل لغة الوحي الخاصّتين.

وبالرغم من أنَّ العلم والتقنيّة في الوقت الحاضر كشفت عن كثير من الأبعاد التي ظلّت مجهولة في الأحكام الإلٰهيّة هذه، وفلسفة وأسرار قوانين السماء وفتحت ـ في هذا المجال ـ آفاقاً واسعة وجديدة أمامنا، فإنّنا لانعلم حدّاً لفلسفة الأحكام والقرارات الإلٰهية أو كونها نهاية المعرفة على الإطلاق (٥٧).

البعد المعنوي والمسيرة الرّوحانية للحج:

حين نطالع سيرة إبراهيم عليه السلام وحركته كما بيّنها لنا القرآن الكريم، ونتابع

كيفيّة جلبه لولده وزوجه إلىٰ صحراء مكّة، ومن ثمّ قضيّة ذبح إسماعيل ووصول الذبح السماويّ، وبناء الكعبة المشرّفة، وما تبعها من أعمال الحجّ، فإنّنا نحصل علىٰ دورة كاملة للمسيرة العبادية والسلوك الرّوحاني والمعنوي للإنسان خروجاً من مُختَنقِ الذّات وعبادتها ووصولاً إلى التقرّب إلى الله، ونبذ متعلّقات النّفس الماديّة، والالتحاق بمقام الربّ، والركون إلىٰ دار الكبرياء (٥٨).

مع أنّه يبدو للوهلة الأولىٰ أنَّ الأحداث التي واجهت إبراهيم، وكذلك أعمال ومناسك الحجّ تتألّف ظاهرياً من أحداث منفصلة عن بعضها البعض، إلّا أنَّ مطالعة دقيقة في هذا المجال، تبيّن لنا حقيقة أنَّ هذه المناسك إنّما هي سلسلةٌ متّصلة تُلاحق هدفاً واحداً، يُعبّر عنها العرفاء بمراحل السير والسلوك الرّوحانيّين، ومراتب الطلب والحضور ومراسيم الحبّ والعشق والإخلاص، وأخيراً خروج المرء من جلده والالتحاق ببحر وجود الخالق اللامحدود، كلّ ذلك يكون في باطن تلك المناسك، ويحصل الإنسان بذلك علىٰ نقاط ألطف كلّما دَقَّقَ في تلك الأمور (٥٩).

هذا هو السلوك الرّوحاني الذي يُمثّل عقل وروح العبوديّة في كل العبادات(٦٠). لكنّه يتجلّىٰ في الحج أكثر من غيره من العبادات، وأنّ الأشكال الظاهرية لمناسك الحجّ يمكنها توضيح ذلك أكثر من باقي العبادات(٦١).

ويُشترط في مسيرة الإنسان نحو الربّ الخروج من دائرة العالم المادّي، وتبنّي طريقة السالكين إلى الله، كما تفضّل الإمام الصادق عليه السلام قائلاً:

«إذا أردت الحجّ فجرِّد قلبَك لله تعالىٰ من كلِّ شاغلٍ، ثمّ اغتسل بماء التوبة الخالصة من الذنوب، وَدعِ الدنيا والراحةَ والخَلق»(٦٢).

وما قاله الإمام زين العابدين عليه السلام مخاطباً الشبلي:

فحينَ نَزَلتَ الميقاتَ أَنَوَيتَ أَنَّك خلعتَ ثوبَ المعصية ولَبِستَ

ثوبَ الطاعة؟... فَحينَ تجرّدتَ عن مخيطِ ثيابك أَنويتَ أنَّك تَجرَّدت من الرياء والنفاق والدخول في الشبهات؟... فحين اغتسلتَ أَنويت أنَّك اغتسلتَ من الخطايا والذنوب؟... فحين تنظَّفت وأحرمتَ وعقدت الحجَّ أنويت أنَّك تنظَّفتَ بنور التوبة الخالصة لله تعالىٰ؟... فحين أحرمت أَنويت أنَّك حرّمت علىٰ نفسك كلَّ محرّمٍ حرّمه الله عزّوجلّ؟... فحين عقدتَ الحجَّ أَنويتَ أنَّك قد حلّلت كلَّ عقدٍ لغير الله؟...

وهكذا حتّىٰ يصل الإمام عليه السلام إلىٰ مسأله التقصير حيث يقول:

أَنويتَ أنَّك تَطَهَّرتَ من الأدناس ومِن تَبَعةِ بني آدم، وخرجتَ من الذنوب كما وَلَدتْكَ أُمُّك؟... فعندما ذبحتَ هَدْيَكَ أَنَوَيْتَ أنَّك ذَبَحتَ حنجرةَ الطَّمَعِ بما تَمَسَّكتَ به من حقيقةِ الوَرَع، وأنَّكَ اتَّبعتَ سُنَّةَ إبراهيم عليه السلام بذبحِ ولده وثمرةِ فؤاده وريحانِ قلبه؟... فعندما رَجعت إلىٰ مكّة وطُفْتَ طوافَ الإفاضة أَنويتَ أنَّك أفَضتَ مِن رحمةِ الله تعالىٰ ورجعتَ إلىٰ طاعته؟...

فختم كلامه عليه السلام قائلاً:

«اِرجع فإنّك لم تحجّ»(٦٣).

ولهذا كان الأئمّة عليهم السلام ـ وهم العُلماء والهُداة إلى الصراط المستقيم السالك إلى الله ـ يتغيّر لونهم وتتبدّل أحوالهم عند وقوفهم في الميقات وقولهم لبّيك، وهو الحال الذي كان يُهيّأهم للانتقال إلىٰ مرحلة التحليق في العلياء، وتتبيّن علىٰ وجوههم آثار خشية القلب، وقد تمرّ دقائق وكأنّهم لا يستطيعون أن يقولوا: لبّيك(٦٤).

وحينما يُسأل الإمام زين العابدين عليه السلام عن تلك الحالة التي تعتريه،

يقول عليه السلام:

«أخشىٰ أنْ يَقولَ لي رَبّي: لالَبَّيْكَ ولاسَعْدَيكَ»[٦٥].

يقول سفيان بن عيينة، وهو الرّاوي لهذا الحديث:

«فلمّا لبّىٰ غُشِيَ عليه وسَقَطَ مِنْ راحِلَتِهِ فَلَمْ يَـزَلْ يَـعتريه ذلك حتّىٰ قضىٰ حَجّه»[٦٦].

وتستمرّ روح العبودية هذه والسلوك الرّوحاني والتـقرّب، وتـرك الدنـيا والانسلاخ عن عالم المادّة، والالتحاق بالملكوت والاستغراق في الله، تستمرّ هذه الحالة حتّىٰ انتهاء مراحل وأعمال الحجّ ومناسكه، فيحسّ بها الحاجّ عبر تـلك اللحظات.

إنَّ الحجّ بهذا البعد المعنوي الواسع والجاذبية الرّوحانيّة العظيمة هو بمثابة دورة كاملة من البـناء الذاتي والتريّـض والرّهـبانية؛ للـتخلّص مـن العـوالق وتشذيب وتهذيب النفس من كـلّ صـنوف الدّنس، وللـتزيّن بمـظاهر الأسماء والصفات الإلهية، وحين سُئِل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عن الرهبانية، قال:

«أبدلنا بها الجهاد والتكبير علىٰ كلِّ شرف» يعني الحجّ[٦٧].

ويتّضح لنا ذلك بصورة أكثر تجليّاً في قولنا «لبّـيك... تـعبّداً ورقّاً» عـند التلبية في حكم تكبيرة الإحرام في الصلاة[٦٨].

كانت تلك نظرة موجزة عن البعد المعنوي والتربوي للحجّ الذي فـرضه الإسلام، وأدّاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واستوت علىٰ أساسه سيرة أئمة الدّين. لاشك إذن في كون أيّ حجّ يفتقد هـذه الرّوح وذلك العـقل، وتـعوزه المـعنوية والطـهارة والخلوص والرّقي الروحاني مهما بلغت درجة سُطوع ظاهره وتـزينه بـالمظاهر البرّاقة، لايتعدىٰ كونه ضجيجاً وحسب.

وهنا نتوقف عن البحث للحظة، ونطرح السؤال التالي علىٰ كلّ المـفكّرين

المسلمين وعلماء الدين الحريصين والمسلمين الغيارىٰ، وكلّ المهتمّين بشؤون الإسلام ومصير المسلمين، ثمّ نُعرض عليهم اقتراحاً بعد ذلك:

إثر إلقاء نظرة واقعية خالية من العنصرية والتحيّز، وبعد التمعُّن في مسألة الحجّ، ما هي نسبة الاستفادة الروحانية والمعنوية التي تحصل عليها سيول المسلمين المتعطشين للإسلام، والعاشقين لشريعة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم والمتدفقة تجاه بيت الله الحرام، هذا السفر الذي يستغلّ عادة الكثير من الإمكانات المالية والمعنوية اللازمة لقطعه؟

ما هو الدور الذي يلعبه علماء الإسلام ومفكرو الدين، والذين تقع علىٰ عاتقهم المسؤولية الايدوليوجية والفكرية، والإرشاد والتعليم والأمر بالمعروف ومراقبة المجتمعات الإسلامية كافّة؟

أقول: ما هو دورهم حال التحضير لقوافل الحجّ بالنسبة إلى المعنوية العظيمة ورفع تلك المعنوية إلىٰ أقصىٰ درجاتها الممكنة؟

ما هي التدابير التي تتخذها الدول وحكّام الأقطار الإسلامية ـ وهم المسيطرون الفعليون علىٰ دين المسلمين ودنياهم ـ والذين لايحق الحكم إلّا لله ولهم باعتبارهم المنفذين والراشدين إلىٰ أوامر الله، وأنّهم خلفاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام والخلفاء؟

هل يتسبّبون في إخراج الحجّ من محتواه الحقيقي لكونهم لا يستطيعون فعل شيء ما إزاء ذلك؟

ماهو العمل الإيجابي الذي قام به متولو الحرمين الشريفين سوىٰ فسح المجال لبروز الرّوىٰ الضيقة والجاهلية العمياء، والتسبب في تفرقة المسلمين ومضايقة حجّاج بيت الله الحرام، وتسلّطهم اللامشروع علىٰ أرواح وأموال وأعراض وشرف هؤلاء الضيوف(٦٩)؟

نعم فهم تارة وتحت عنوان حفظ قدسية الحجّ وحماية معنوياته يمتنعون عن توفير الوسائل الصحيّة مع كون الطهارة والنظافة جزءاً لايتجزأ عن الدين[٧٠] وتتكون كلّ سنة مناظر قبيحة تشمئزّ لها النفوس وتعصر قلب كلّ مسلم.

وأمّا اقتراحنا فهو لايتعدّىٰ أمراً واحداً وهو عودة علماء الإسلام إلىٰ مكانتهم الطبيعية الأصيلة في المجتمع، وتتمثل في المركزية الايدولوجية للمجتمع الإسلامي[٧١].

وبتحقق هدف كهذا، فإنّ الجموع الإسلامية الغافلة ستستيقظ من غفلتها، وتتذوق التجارب القيّمة الموجودة في تاريخنا، وباعتمادهم روح الأمل فإنّهم سوف يسيرون خلف عالمهم، ممّا سيضطرّ الحكّام إلىٰ تغيير مسارهم مقابل التعبئة المعنوية للشعب والمركزية العقائدية للمجتمع، ويتطهّر بذلك بيت الله ويتهيّأ لاستقبال زائريه:

إنّ مسؤولية وواجب ﴿ **وعهدنا إلىٰ إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والرّكع السّجود** ﴾[٧٢] تقع اليوم علىٰ عاتق العلماء الربّانيين والمفكّرين الحريصين على الإسلام؛ ليقوموا وينهضوا فيحييوا روح الحجّ الإسلامي، ويُلبسوا المجتمعات الإسلامية تلك الحياة بعد أن غدت هيكلاً لاروح فيه.

الدور الخلّاق للحج في الرقيّ والتطوّر الثقافي:

عندما يُذكر بيت الله الحرام بكونه علماً وراية للإسلام: «جعله الله سبحانه وتعالىٰ للإسلام علماً»[٧٣] وأنَّ ترك الحجّ يعني الكفر لامحالة، حيث يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله مخاطباً عليّاً عليه السلام في حديث صريح: «ياعلي تارك الحجّ وهو مستطيع كافر»[٧٤] ويستدل بالقرآن لتأكيد ذلك[٧٥]: ﴿ **ولله على النّاس حجّ**

البيت ﴾، ويقول: ﴿ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين ﴾. ولا يكتفي بذلك بل يوضّح أكثر حيث يقول: «يا علي من سوّف الحجّ حتّىٰ يموت بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً»(٧٦) وهنا يتّضح دور الحجّ في تغذية الإيمان والارتقاء الثقافي للمسلمين أكثر من أي مكان آخر.

كأنّي بالحجّ وهو يمثّل دورة تعليميّة في الدين، حيث لايصل المسلمون إلىٰ حقيقة الإيمان إلّا بدخول تلك الدورة على الأقل مرة واحدة في حياتهم(٧٧).

ويوصي الإمام علي بن الحسين عليه السلام ـ وهو أحد المسارعين دائماً إلىٰ حجّ بيت الله الحرام ـ أصحابه قائلاً: «حجّوا واعتمروا... يُصلح إيمانكم»(٧٨).

وتنصهر الرُّؤى الدينية والإيمانية والثقافة الإسلامية وتفكير المسلمين في بوتقة الأعمال الخالصة عبر الحجّ ومناسكه فيصل الحاج إلى الثقافة الإسلامية الأصيلة.

وحين يسأل هشام بن عبدالملك الإمام الصادق عليه السلام عن فلسفة الحج، يجيب الإمام عليه السلام عند ذكره لحكمة الحجّ قائلاً:

«فجعل الإجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا... ولتُعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتُعرف أخباره ويُذكر ولا ينسىٰ، ولو كان كلّ قوم يتكلّمون علىٰ بلادهم وما فيها هلكوا وخُربت البلاد وسقطت الجلب والأرباح وعميت الأخبار ولم تقفوا علىٰ ذلك فذلك علّة الحجّ»(٧٩).

إنّ الحجّ بحقّ رجوعٌ إلى التوحيد وتاريخ حماة هذه الفريضة، آدم وإبراهيم وإسماعيل وصولاً إلى الإسلام ونبيّه صلى الله عليه وآله وسلم، وصدام متواصل بين الإيمان من جهة والكفر والنفاق من جهة أُخرىٰ، وبقاء الكعبة شامخة سيظلّ هذا التأريخ متجسّداً وعاكساً للتوحيد وعلماً ومَعْلَماً نشأت عنه حقائق الدين؛ فيخلد بذلك التوحيد وثقافته ويحيا حياةً أبدية(٨٠).

ويكون الإنسان في الحج مُخاطباً من قِبَل الحرم والميقات والإحرام ومكّة، والكعبة، والطواف، والسعي، والصفا والمروة، والتقصير، وعرفات، والمشعر الحرام، ومنىٰ، والمذبح والجمرات، والمبيت، كلّ تلك المشاهد تخاطب الإنسان وتجعله يغطّ في تأمّل طويل، وتمنحه نظرة جديدة توحيدية خالصة، وترجع به إلى الثقافة الإسلامية الأولىٰ.

إنّ الظلم والحروب والجهالة والغرور والظلمات في الحياة الإنسانية، كلّها تنبع من طريقة تفكير الإنسان ومدىٰ تعقّله. ولأجل استئصال كلّ تلك الآفات والمفاسد على الاصلاح أن يبدأ من فكر وعقلية الإنسان أوّلاً. ولغرض إقامة العدل والسلام والأخوّة والنموّ ورقي الإنسان والأسس الفكرية والجذور العقلائية، وتقوية هذه الأسس وتلك الجذور لا بدّ من اعتمادها التفكير المتبادل والتعاون البنّاء للبشر والشعوب علىٰ حدّ سواء.

إنَّ الحجَّ تعليم عمَليّ لثقافة المساواة والأخوّة والتعاون نحو الخير ومصلحة الإنسانية، وهو فرصة ذهبية للتبليغ ونشر الثقافة الإسلامية الغنية في الطبقات الواسعة من المسلمين حيث يبثّ عامل القوّة في المجتمعات الإسلامية والذي له دور فاعل وأساسيّ.

ولاريب في أنّ المقدمات الأولية للذهاب إلى الحجّ تتمثّل بتعلّم الكثير من المسائل الإسلامية والتفقّه الابتدائي، وهي أرضية مناسبة تُتيح لعلماء الإسلام إرشاد جموع غفيرة من المسلمين، ونشر الثقافة الإسلامية وإشاعة التفقّه في الدين. وبالتأكيد فإنّ روحانية الحجّ هي نفسها عامل مهم يُهيأ القلوب لتعلّم الحقائق والمعارف الدينيّة للإسلام.

يقول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام مخاطباً الفضل بن شاذان[٨١]:

«مَعَ ما فيه مِنَ التفقّه وَنَقْلِ أخبارِ الأئمّة عَليهم السلام إلىٰ كلّ

صقع وناحية كما قال الله عزّوجلّ: ﴿فلولا نَفَر من كلّ فرقةٍ منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين ولينذروا قَومَهُم إذا رَجعوا إليهم لَعلَّهم يَحذرون﴾»[٨٢].

ولاتقتصر نعمة وبركة نشر المعارف والثقافة الإسلامية في مراسم الحجّ على المسلمين القادمين من أقصى البقاع أو أقربها، ذلك أن كلّاً من هؤلاء المسلمين سينقل معه تلك الثقافة وماتعلمه إلىٰ بلده ويعمل علىٰ نشرها هناك وبثّها في أوساط المسلمين كافّة، وعلىٰ هذا يتّخذ دور الحجّ أبعاداً أوسع وخصوصاً بتكرار عمليّة الحجّ كلّ عام، ويجعل من الدين أقوىٰ آصرة تلم المسلمين وتضمن خلود الإسلام.

وقد وردت هذه الحقيقة في حديث قصير وبليغ للإمام علي عليه السلام حيث يقول: «فَرَضَ الله... والحجّ تقوية للدّين»[٨٣]. والإمام الصادق عليه السلام إذ يقول: «لايزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»[٨٤].

إنَّ النموّ الثقافي هو الهدف الذي ينشده الإسلام في مراسم الحجّ البهيّة، ويقوّي هذه الأرضية ويعزّز الحقيقة القائلة: إنّ جميع البشر على الرغم من الاختلاف في اللّون والبشرة والعنصر واللّغة والميزات الإقليمية والتأريخية والطبقية وغيرها يتمتّعون بفطرة واحدة، وإنَّ هذه الفطرة متساوية عند كلّ البشر، والتي تمنح الثقافة الإنسانية وحدتها، وترسم صورة عامّة وشمولية تامّة لماهية أصل الثقافة، مبيّناً أنّ ثقافة التوحيد وهي نفسها ثقافة الفطرة هي ثقافة مشتركة بصورتيها العينيّة والرمزيّة.

وأثناء المسيرة التي تقطعها مناسك الحجّ تتحرّر الثقافات الثائرة، وتخرج عن نطاق العادات والسنن القومية والإقليمية ودائرة الهوية الوطنية، وتنتمي إلى الهوية الإسلامية الجامعة والعامّة حيث الثقافة الفطرية الإنسانية الناتج عن

المكانة الثابتة للثقافة الفطرية داخل كيان الإنسان.

ويدرك الإنسان في الحجّ أصالة البنية التحتية للثقافة الإنسانية، التي هي نفسها الثقافة التوحيدية الإبراهيمية الخالصة دون أن يفقد الإنسان أيّاً من القيم الثقافية والعادات والتقاليد الخاصّة به، فيما يتعلّق بالمسائل والأشكال التي تؤلّف حياته الطبيعية ـ لا من حيث المحتوىٰ ولا من حيث البرامج ـ مهما كانت جنسيته وقوميته وعرقه، فيجذبه ذلك نحو الفكرة والعقيدة الخاصّة به.

والحقّ أن الحجّ دورة تعليمية تتيح انتقال الثقافات، والتعرّف على الثقافة الإنسانية الفطرية للحصول علىٰ هوية ثقافية إسلامية مشتركة، فتكون الملايين المتعلّمة شجرة طيّبة ثابتة عند رجوعها إلىٰ أوطانها. وبعد ارتداء الملابس الخاصّة بها والرجوع إلىٰ أشكالها وقوميّاتها، تتزيّن تلك الشجرة بثمار يافعة وأغصان نضرة فتؤتي أكلها في كلّ حين وزمان وتزداد وحدة وسيادة وقدرة وتعالٍ (٨٥).

ونستنتج في نهاية بحثنا الموجز هذا شيئاً ونختمه باقتراح نرجو أن ينال رضا الجميع. حيث نصل إلىٰ نتيجتين من خلال النظر إلى البعد الثقافي للحجّ واللتين تعتبران من الأسرار والنتائج الحياتية والحكم والأهداف الأصيلة لهذه الفريضة العظيمة:

١ ـ يجب أن تقام مراسيم ومناسك الحجّ بطريقة يَتِمّ بواسطتها انتقال ثقافات الشعوب الإسلامية، وتثبيت الرابطة والآصرة فيما بين الثقافات والتراث والهويّات الوطنيّة علىٰ أساسٍ من التفاهم المنطقي وتهيّأ الأرضية المناسبة للتعاون والمشاركة الثقافية؛ لتقوية وتعزيز التعرّف على الثقافة والهويّة الإسلامية، ومعرفة القيم الثابتة والخصائص المُستندة على الفطرة الواحدة، وتوسيع السُّبل الخاصّة بتطبيق الجغرافية الثقافية الخاصّة بالشعوب وآثارها

المتخلفة عن ذلك علىٰ أساس المعايير والموازين الأصيلة المشتركة للثقافة الإسلامية، فيزول بذلك كلّ جهل وتعصب، كما تزول الشعوبية والمعايير غير المنطقية الموجودة في الفطرة الإنسانية الداعية للفُرقة عن كلّ المجتمع الإسلامي الكبير، ويتحرّر عموم المسلمين من القيود التي فرضها الاستعمار الغربي باسم الوطنية وإحياء الثقافة الوطنية ويُسقطها عن كاهله.

إنَّ التجارة التأريخية والتوصيات الدينية(٨٦) تبعث فينا الطمأنينة من عدم وجود مخاطرة تذكر باستخدام هذه الطريقة المستقاة من الثقافة التكاملية للحجّ على الوجود الثقافي والتراث الخاصّ بالشعوب على الرغم من الضجيج والإعلام المعادي الذي يصطنعه الاستكبار العالمي وعملاؤه في هذا المجال، بل بانتقال القيم المشتركة، وبالمشاركة الفعلية للثقافة، والحصول على الهوية الإسلامية المشتركة ستزول الخصوصيات الثقافية لشعب ما التي لم تحمل في ثناياها القيم الفطرية الأصيلة والتوحيدية المشتركة؛ فتحفظ مكانتها بصورة تراث تأريخي ضمن التكامل الوطني.

٢ ـ يجب أن تبدأ مراسيم الحج باستئصال جذور الثقافة الاستعمارية، والارتباط الثقافي للشعوب الإسلامية بالغرب والشرق وكلّ المصادر التي تمّت بصلة إلىٰ روح الاستعمار والاستثمار.

إنَّ الحجّ رجوعٌ وعَوْد عقلانيّ إلى الإسلام الأصيل، وتعليم لإصلاح الإيمان ومعرفة لآثار وتراث الإسلام ورسوله ﷺ وتذكرة للتفكّر التوحيدي الفطري. لذا وَجَبَ على الحاجّ تجريد فكره وروحه وعقله ونفسه عن الثقافات اللاتوحيدية، والارتباطات الثقافية التي تبعده عن الله ورسوله ﷺ والخلق أجمعين والتي تجذبه نحو خدمة المصالح الغربية والشرقية.

على الحجّ أن يكون عاملاً لإحياء التفكّر هذا، ومحاربة التشريفات

الاستعمارية بلا هوادة، والابتعاد عن كلّ مظاهر الارتباط الثقافي الاستعماري.

ونقصد بذلك رفض تلك الثقافة الاستعمارية التي تحاول فرض تجاربها هي، وتضع آثار ثقافتها الغريبة على الآخرين، التي لا تُعدّ انتخاباً حُرّاً ومنطقياً للتجارب العلمية والتقنية للآخرين في المستوى العالمي(٨٧).

ونقترح هنا:

١ ـ يجب أن يكون هناك تفاهم وتقارب ثقافي على المستوى العام للنّاس، وبالأخصّ بين المفكّرين والمتخصّصين في مجال إقامة مراسيم الحجّ، إذا أُريد للهدفين المذكورين أن يتحقّقا علىٰ أكمل وجه، وأن يُخصّص الحجاج جزءاً من وقتهم لذلك.

٢ ـ إيجاد وإنشاء المراكز الخاصّة بانتقال الثقافات والوصول إلىٰ ثقافة إسلامية مُوحّدة، والتخلّص من الثقافة الاستعمارية في مختلف الأقطار، وتهيئة أرضية مناسبة لمركز عالمي ثقافي إسلامي.

٣ ـ إرشاد الدول الإسلامية أو إجبارها بالوسائل المتاحة علىٰ اتّباع سياسة ثقافية في المجالين المذكورين أعلاه، واعتماد سياسات ثقافية واقتصادية من أجل التنمية الثقافية للشعوب المسلمة.

البعد السياسي والاستعدادات البطولية في الحجّ:

يذكر الإمام علي عليه السلام في حديث له أن ترك حجّ بيت الله مدعاة للهلاك والفناء: «لاتتركوا حجّ بيت ربّكم فتهلكوا»(٨٨)، وفي حديث آخر يُذكّر فيه القادة من بعده والمسلمين عموماً بأنّ عدم إحياء الحجّ سيجعلهم يفقدون عزّتهم وشخصيّتهم وسيادتهم مقابل الغرباء وبالتالي لن تكون لهم مكانة ضمن الشعوب الأخرىٰ:

الله الله فــي بــيتِ ربكـم لاتـخلوه مـابقيتم فـإنّه إن تُـرِكَ لم تناظروا»(٨٩).

وفي حديث للإمام الصادق عليه السلام يذكر فيه مضمون الحديث السابق:

«أما أنّ النّاس لو تركوا حجّ هذا البيت لنزل بـهم العـذاب ومـا نوظروا»(٩٠).

إنّ الرابطة بين الحديثين السابقين هي ترك الحجّ والذي يُعدّ نموذجاً للعذاب الدنيوي أو على الأقلّ هذا ما يعنيه، وهو العذاب الذي نشهده اليوم بين مـعظم الشعوب والأقطار الإسلامية ممّا جعلهم عبيد السياسة والعساكر.

ونطالع في حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«لو كان كلّ قومٍ إنّما يتكلّمون علىٰ بـلادهم ومـا فـيها هـلكوا وخربت البلاد»(٩١).

إنّ بقاء الشعوب الإسلامية ضمن إطار القومية الغربية المصطنعة لن يؤدّي إلّا إلىٰ تجزئة العالم الإسلامي، وتبديل المجتمع الإسلامي الكبير إلىٰ قطع صغيرة يسهل بَلعها من قِبَلِ الاستعمار المجرم.

إنَّ المسلمين أُقتيدوا إلى الاستضعاف والعجز، ولمّا لاتكون لديهم قدرة علىٰ مجابهة عدوّهم احساساً منهم بهذا العجز، وأنّه لاتـوجد لديهـم التـجهيزات أو الإمكانات اللازمة لذلك التصدّي فإنّهم يتجهون إلى الحجّ؛ ليتمكنوا عن طريق هذه المراسيم السياسية ـ العبادية اكتساب الاستعداد اللازم لذلك، وبالاخلاص والانقطاع لله تعالىٰ تستمدّ أرواحـهم قـدراً كـبيراً مـن القـدرة اللامـتناهية لله عزّوجلّ، وبالارتباط المعنوي والأمـل والحُبّ والثـبات في طـريق الله بـرؤية أحبّائهم واخوانهم، يتحدّون معاً بالروح والشخصية والإسلام، ويـعودون إلىٰ أوطانهم ليباشروا تعليم ما تعلّموه في الحجّ تـاماً كما يـفعل الأبـطال في مـيدان

الحرب بما تعلموه في التدريب والمناورة؛ لوضعها حيز التنفيذ علىٰ أرض الواقع، والوقوف بوجه القوى الاستكبارية والأخذ بالعوامل المؤدّية إلىٰ اضعافه.

إنَّ حديث «الحجّ جهاد الضعفاء» والمنقول بطرق مختلفة[٩٢] يبيّن بوضوح أبعاد الحجّ بدءاً من المجال العباديّ والسياسي ووصولاً إلى الأفق الواسع للفعّاليات الجهادية، وخاصّة فيما نطالعه من جواب الإمام زين العابدين عليه السلام على المعترض الذي أخذَ على الإمام حجّه علىٰ أساس تركه للمشقّة وصعوبة الجهاد والميول إلىٰ طلب الراحة في الحجّ زاعماً نصيحة الإمام ومنتقداً له علىٰ هذا الانحراف ممّا يدعو إلى التأمّل: «فقال علي بن الحسين عليه السلام: ...قال الله عزّوجلّ: ﴿**التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون...** ﴾[٩٣] إذا رأينا هؤلاء الذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ»[٩٤].

إنَّ الحجّ حقّاً يصنع أبطالاً جديرين بالاحترام كهؤلاء.

فالتناسب الماهوي بين الاشتراك في غزوة مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحجّ بيت الله في الحديث التالي: «**الغازي في سبيل الله والحاجّ والمعتمر وفد الله دعاهم**»[٩٥] يعلّمنا أن العلاقة مع البعد السياسي ـ العسكري للحجّ هي أنَّ المجاهدين في سبيل الله وحجّاج بيت الله مجموعة وصفوة منتخبة وممثلون لله الذي دعاهم إليه.

ونرىٰ تعبيراً أبسط آخر في بعض الروايات: «الحجّ جهاد»[٩٦] وعلىٰ هذا فإنَّ الحجّ يعدّ من مصاديق الجهاد، وأنَّ المراسيم العظيمة في الحجّ إنّما هي صورة من صور الجبهة والجهاد في سبيل الله، وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نِعمَ الجهاد الحجّ»[٩٧] يصوّر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم علىٰ أنّه أبهىٰ صور الجهاد في سبيل الله.

وقد ورد حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يُزيل كلّ شكّ وشبهة في هذا المجال: «النفقة في الحجّ كالنفقة في سبيل الله»[٩٨].

إنَّ التساوي والمساواة بين الحجّ والجهاد في الإسلام هو بيانٌ لمجموع

الإسلام، ويُبيّن الحقيقة القائلة: إنَّ هاتين الفريضتين كانتا وماتزالان تمتلكان أهدافاً مشتركة، وفي الوقت نفسه فلكلّ منهما خصوصية ماهوية خاصّة بهما، ويُعدّ كلّ منهما عبادةً وعملاً سياسياً لتقوية وتحقيق الأهداف السياسية للإسلام علىٰ حدّ سواء.

فمن ذا الذي يستطيع في مقابل مثل هذه التصريحات الثابتة للنبي ﷺ وأئمة الدين أن يدخل الشكَّ في قلبه فيما يتعلّق بفلسفة الحجّ السياسية؟ ومن ذا الذي يمتنع عن رفض واستنكار الصدى المنكر والإعلام الساذج الداعي إلىٰ فصل الدين عن السياسة والقائل بعزل مراسيم الحج عن المنافع السياسية التي ينطوي عليها الحجّ لمصلحة الإسلام وضدّ الاستكبار والإلحاد والنفاق والمجتمعة في خندق واحد لهدم قدرة الإسلام وإرغام الأقطار الإسلامية للاحتماء تحت لواء الاستكبار وبالتالي لنهب مواردها ومصادر ثرواتها الطبيعية والنّعم الإلٰهيّة؟ أم من ذا الذي لايلغي النيّات السيئة لدعوات الاستعمار وبائعي نفوسهم للأجنبي الشرقي والغربي؟

إنَّ هذا الداعي الشّؤم غلادستون ليس وحده الذي يدعو العالم إلىٰ الاحتراس من ازدياد قدرة المسلمين بالحجّ والحيولة دون تعاليهم، بل هناك أفراد مسلمون في الظاهر بينما تربط مصالحهم في الباطن مع مصالح الاستعمار العالمي، وباسم حماة الإسلام والحرمين سلبوا قداسة مراسيم الحجّ ومنعوها من أن تظهر بجلاء وأبّهة مطلوبتين وهم يتمنّونَ في داخلهم إرتداء لباس غلادستون وتنفيذ مرامه.

الحجّ دافِعُ لنهضة العالَم:

لتوضيح البعد السياسي للحجّ، نعتمد سنداً أفضل ونصّاً أوضح وأصلاً

أثبت، وهو كلام الله المجيد في القرآن الكريم، والذي يُعرّف الكعبة صراحة على أنّها العامل والدافع لقيام النّاس ونهضتهم:

﴿ **جَعَلَ الله الكعبة البيت الحرامَ قياماً للنّاس** ﴾[٩٩].

إنَّ الوجود والاستقلال والحركة والسلطة والاعتماد أو الاتّكال على النفس، ونبذ التبعيّة للآخر، وإنّ التكتُّل والمساواة والمشاركة الفعّالة تعدّ كلّها من أهمّ مقومات المفاهيم السياسية في العصر الحاضر وما تحتاجه الشعوب الإسلامية بالحاح. إنّ كلّ تلك المفاهيم اجتمعت في كلمة واحدة ألا وهي (القيام) كما هو الحال مع بيت الله الذي جعل ملاذاً وأمناً: ﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للنّاس وأمنا** ﴾[١٠٠] ويتضمّن مفاهيم سياسية كبيرة.

إنّنا نرىٰ جانباً من المحاكاة والانسجام في حكمة السعي بين الصفا والمروة ونموذجاً للكفاح المتواصل[١٠١]، وحين يُزاحم الشيطان هذا الكفاح وتلك المحاكاة والانسجام يهرول إبراهيم عليه السلام للفرار من براثنه ومن الوقوع في حبائله[١٠٢]. ولهذا يقوم الكلّ بالسعي فينهار الجبابرة والحاقدون بذلّ وخِزْي، كما يوضحه لنا الإمام الصادق عليه السلام:

«**ما مِنْ بُقعةٍ أحبُّ إلى الله عزّوجلَّ مِنَ المَسْعىٰ لأنَّهُ يَذِلُّ كلُّ جبّارٍ**»[١٠٣].

وفي ليلة العيد تندفع الجموع نحو المشعر الحرام ذاكرين الله سبحانه:

﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام** ﴾[١٠٤]، لكن العدو ما يزال يترصّدنا محاولاً النَّيل من ذكر الله ومنع لعن عدوّ الله، ذلك أن المشعر هو مكان الشعور والإحساس والمعرفة المكتسبة فلا يتّسع عرفات لكلّ هذا الشعور، إنّه الشعور الذي يجبر الإنسان على القيام بوظيفته والدعوة إلى الجهاد مع وجود متقابل بين تينك العلاقتين. وفي أرض الشعور هذه يستيقظ الجميع

ويستعدّ لمحاربة الشيطان غداً فيفكّرون في السلاح اللازم لذلك، وجيش التوحيد العظيم والسلاح ينتظران الصباح للذهاب نحو أرض الفداء ليريقوا دم الهَدي مُؤدّين بذلك عملاً إبراهيميّاً آخر(١٠٥) معلنين عبوديّتهم للباري عزّوجلّ من خلال تنفيذه أمره، وهذه القرابين هي الّتي ستكون مركب نجاتنا ونجاحنا غداً(١٠٦) حيث اعتبرها الله تعالىٰ من الشعائر: ﴿ **والبُدن جعلناها لكم من شعائر الله** ﴾(١٠٧) وإراقة دم القربان عامل من عوامل الحسّ واليقظة الخالدة للإسلام، الذي يفرض علينا الطواف والمسلخ معاً والمسجد والجهاد علىٰ حدّ سواء.

وفي الجمرات حيث مأوى العدو، وقبل إعطائه فرصة الاعتداء والتسلّط، تبدأ الحملة المسلحة ضدّه، فالكلّ يضرب ويسدّد حجره نحو العدو، لا لمرة واحدة بل لسبع مرات متواصلة ولمدّة ثلاثة أيّام متوالية، يضربون الشيطان الأكبر والمتوسّط وكذلك، صغار الشياطين والعدو الذي لم يُضرب بعد لن يبقىٰ في المكان نفسه علىٰ أيّة حال.

إنَّ على الحجّ اليوم أن يكون مثالاً للحجّ زمن إبراهيم والرسول ﷺ ومليئاً بالشعور السياسي والعسكري متمثّلاً في السيل الجارف للحجّاج، وانعكاس هذا الشعور بصورته المصغرة في أرض الواقع في المجتمع الإسلامي المليارى في كلّ العالم يحيل وحدتهم في الحجّ ووعيهم إلىٰ واقع ملموس في حياتهم اليومية.

ولاريب في أنّ مثل هذا الشعور السياسي موجود في كلّ المحاولات في حياة المسلمين في العالم، والمسلمون قادرون علىٰ خلق هذا الشعور لامحالة، وتشكيل وحدة تجمعهم وتحضّرهم وتدفعهم إلىٰ كسر الأغلال والعبودية السياسية والعسكرية.

فلو عرَّفنا السياسة بأنّها حسن التدبير لأمور مجتمع ما أو كيفيّة تنظيم

العلائق الاجتماعية، أو وعي الإنسان لمحيطه وبيئته ومجتمعه. والمصير المشترك والحياة المشتركة له وبمجتمعه الذي يعيش فيه وينتمي إليه، أو أيّ تعريف آخر، ومهما يكن ذلك التعريف فإنَّ أيَّ سياسة وأيّ حادثة سياسية تحتاج إلى التدبير والتفكّر، وأنَّ أيّ تدبير عاقل يجب أن يُبنىٰ على الأمل والرّجاء.

ويستغرق الإنسان، الذي يروم التفكير والعمل الجدّي للمجتمع غداً، أقول: يستغرق لأيّام في وادي الآمال والأمنيات في (منىٰ) في موسم الحجّ، فعليه أن يُشبع أفكاره ويغذّي روحه ويتزوّد من الوليمة المبسوطة عند اهداء الدم ورجم الخونة الكبار والصغار، وعند النضال ضد الشياطين، كما أوصىٰ إبراهيم عليه السلام في منىٰ: «هناك يا إبراهيم تمنّ علىٰ ربّك ما شئت»[١٠٨] ولذلك سُمّي الوادي بوادي (منىً)[١٠٩]، فلا شك في أن الحياة الإنسانية تذبل وتموت بموت الآمال وتحطّم الأمنيات[١١٠].

ويتطلّع ويطّلع المسلمون في اجتماع الحج على المشاكل السياسية والآلام الاجتماعية لكلّ منهم، فيصلون إلى الحلول المناسبة بالمشاركة الوجدانية والانسجام والتعاون، حلول مبينية علىٰ الأصول والمعايير الإسلامية[١١١]، ويسعون إلىٰ استئصال جذور المشاكل السياسية وعلىٰ رأسها التبعيّة للتسلّط الشيطاني للعدوّ الخارجي، ويتّخذون التدابير اللازمة للحيلولة دون وقوع المؤآمرات المتواصلة للاستكبار العالمي، عدوّ الإسلام والشعوب الإسلامية الذي لايُصالح، وإيجاد التعاون فيمابين المسلمين كافّة.

إنَّ الكثير من المسلمين المقتدرين من الناحية الجسمية والحالة المادية والعقلية الممتازة يرون ويشهدون كلّ سنة تجلي الوحدة الإنسانية في مراسم الحجّ، ويتوصّلون إلىٰ أنَّ حقيقة الإنسانية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالفطرة والإيمان والقيم العليا وهي موجودة بالطبع في هذه الجموع. ويستنتجون مدى الظلم الذي

تفرضه الامتيازات والعنصرية القائمة علىٰ أساس العرق واللّون واللغة والمحيط وغير ذلك.

إنّهم يدخلون دورة تعليمية سياسية فيخلصون إلى الصعوبة التي تكمن وراء تنفيذ مشروع الأمّة والإمامة مع وجود كلّ عوامل الفرقة والانفصالية.

ويتعرّف جميع المسلمين المستطيعين والمقتدرين على التحقّق الواقعي (بشكل رمزي) للأمّة الواحدة والحركة المشتركة ووحدة الهدف والتكتُّل وعلىٰ انموذج من الإمامة مرّة واحدة على الأقلّ في عمرهم.

والحقّ أنَّ اتّحاد المجتمع الإسلامي الكبير الذي يُعدّ أحد أسمى القيم والأهداف السياسية والاجتماعية للإسلام يُكتسب أثناء قيام المراسم العظيمة للحجّ وبصورة عينية، فيتجسّد للمسلمين الطريق الأمثل لمحاربة عوامل التفرقة، كأنّي بهم وهم يشتركون باللباس والعمل والحديث والأصل والهدف والشكل، يتدرّبون علىٰ الاتّحاد في جميع نواحي حياتهم(١١٢).

الحجّ اختبار الله الكبير:

لقد قرأنا فلسفة الحجّ في القرآن الكريم وعلمنا أنَّ الله سبحانه يضع الإنسان ـ علىٰ طول المراحل الحسّاسة في حياته ـ في مآزق وعُسرة وظروف صعبة، مختبراً إيّاه حتّىٰ يتبيّن الحقّ من الباطل والخالص من الشائب فيفصل هذا من ذاك(١١٣).

﴿ أحسبَ النّاس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون ﴾(١١٤).

ولا يكون الاختبار المذكور متشابهاً لكلّ النّاس، ففي حالات مُعيّنة وبصور متفاوتة تمرّ على الإنسان اختبارات:

﴿ ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس

والثمرات وبشّر الصابرين ﴾[١١٥].

ولايُستثنىٰ حتّىٰ الأنبياء من الاختبار الإلٰهي هذا فهم يجتازون اختبارات متميّزة.

﴿ وإذ ابتلىٰ إبراهيمَ ربُّهُ بكلماتٍ فأتمّهنّ ﴾[١١٦].

فالبعض من هذه الاختبارات لها صفة مرغوبة وهي معلومة وواضحة كذلك[١١٧] بينما يتميّز البعض الآخر بالتعقيد والصعوبة والتبطُّن والخفاء حيث يذكرها القرآن الكريم علىٰ انّها «بلاء عظيم»[١١٨].

إنَّ الحجّ اختبار كبير يدخله المؤمنون قاطبة ولو لمرّة واحدة في كلّ حياتهم. يقول الإمام علي عليه السلام بهذا الخصوص:

«ألا تَرونَ أنّ الله ـ سُبحانه اختبر الأوّلينَ مِن لدُن آدم ـ صلوات الله عليه ـ إلىٰ الآخرين مِن هذا العالم بأحجارٍ لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تُبصِر ولا تَسمع، فجَعَلَها بيتَه الحرام الذي جعله الله للنّاس قياماً، ثُمَّ وَضَعهُ بأوعرِ بِقاعِ الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الدنيا مدراً، وأضيقِ بُطونِ الأودية قُطراً بين جِبالٍ خشنةٍ ورِمالٍ دَمِثَةٍ، وعُيون وشلة، وقرىً منقطعة، لا يزكو بها خُفّ، ولا حافر ولا ظلف.

ثمّ أمرَ آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصارَ مثابةً لمنتَجع أسفارهم، وعاية لملقىٰ رحالهم، تَهوىٰ إليه ثمار الأفئدة، من مفاوزِ قفار سحيقة، ومهاوىٰ فجاج عميقة، وجزائر بحارٍ منقطعة، حتّىٰ يهزّوا مناكبهم ذُللاً، يُهَلّلون لله حوله، ويرملون علىٰ أقدامهم شُعثاً عُبراً له، قد نبذوا السرابيل وراءَ ظهورهم، وشوَّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاء عظيماً وامتحاناً شديداً، واختباراً مُبيناً وتمحيصاً بليغاً، جَعَله الله سبباً لرحمته، ووُصلةً إلىٰ جنّته.

ولو أراد ـ سبحانه ـ أن يضع بيته الحرام ومشاعره العِظام بين جنّات وأنهار، وسَهلٍ وقرار، جمٍّ الأشجار، داني الثمار، : مُلتفّ البنىٰ، مُتّصل القُرىٰ، بين بُرّة شمراء، وروضة خضراء وأرياف مُحدقة، وعراصٍ مُغدقة، وزُروعٍ ناضرة، وطُرقٍ عامرةٍ، لكان قد صغَّر قدر الجزاء علىٰ حسب ضعف البلاء.

ولو كان الأساس المحمول عليها والأحجار المَرفوع بها بين زُمُرُّدة خضراء، وياقوتة حمراء ونورٍ وضياء، لَخفَّف ذلك مُصارعة الشكّ في الصدور، ولَوَضَع مُجاهدة إبليس عنِ القلوب، ولَنفىٰ مُعتَلج الرّيب منَ النّاس.

ولكنّ الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويَتَعبَّدهم بأنواع المجاهدين، ويُبتَليهم بضُرُب المَكاره، إخراجاً للتكبّر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلّل في نفوسهم، وليَجعلَ ذلك أبواباً فُتحاً إلىٰ فضله، وأسباباً ذُلُلاً لِعَفوه»(١١٩).

البُعد الاقتصادي للحجّ:

يعتري الإنسان، في الواقع، الشكّ في أنَّ الحجّ هذه العبادة المليئة بالمعنويات وبعد إحساسه العمق والتوسّع الخاصّين بالبُعد المعنوي والروحي له، أقول: يعتريه الشكّ وتتملّكه الريبة في قدرة هذه العبادة علىٰ أن تكون لها أبعاد اقتصادية وآثار مادّية بنّاءة في حياة الإنسان. إنَّ هذه النظرة الانحسارية والضيّقة هي في الواقع آفة تعتري كلّ من يطالع مسائل المجتمع الإسلامي، وتُعدّ عاملاً رئيسيّاً في تحريف المسائل الأسياسية.

إنَّ الذين يسعون في إفراغ محتوى الحجّ من مادته الأصيلة بحجّة الحفاظ

على المعنوية والروحيّة هم أغلب الذين تصيبهم تلك الآفة، لكنّهم يجهلون أنَّ الإسلام وروح الحجّ أكبر وأوسع من حجم تفكيرهم ومطامعهم الصغيرة.

ولعلّ هذه الآفة الفكرية كانت السبب الرئيس في جعل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم يُصرّح ويجوّز امكانية الاستفادة الاقتصادية والتعامل التجاري في موسم الحجّ بعد توضيحه لشمولية الحجّ والبعد الاقتصادي له[١٢٠].

ومع أنَّ التعبير القرآني ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ هو أوضح مثال ودليل علىٰ اشتمال المصالح الاقتصادية في الحجّ، إذ تُبيّن بدقّة المسألة الخاصّة بالبعد الاقتصادي حيث تستطيع مختلف الشعوب الإسلامية عرض مظاهر التنمية الإقتصادية ونماذج من بضائعهم الانتاجية في موسم الحجّ علىٰ جميع المسلمين واحاطتهم بالوضع الاقتصادي العام للعالم الإسلامي من حيث الكمية والجودة ممّا يُتيح للمسلمين وضع أرضية ملائمة للتفكير المشترك، والتعاون فيما بينهم في المجال الاقتصادي لهم علىٰ اختلاف جنسيّاتهم، وهو العامل الذي يمكّن المسلمين من رفع المستوى الاقتصادي في أقطارهم والأقطار الإسلامية المتخلّفة والنامية.

وعلىٰ هذا فإنَّ موسم الحجّ هو مَعرضٌ كبير وسوق عظيم لعرض المنتجات الزراعية والصناعية وغيرها ممّا ينتجه المسلمون في مختلف الأقطار الإسلامية، فينتفع المجتمع الإسلامي الكبير من هذه البركات التي يتيحها له الحجّ باعتباره السوق المشتركة الإسلامية والعالمية علىٰ حدّ سواء، فيزدهر التبادل التجاري وتتعمّق العلاقات الاقتصادية بين الأقطار الإسلامية وتتّسع أكثر فأكثر.

ويمكننا استنباط هذه النقطة من الرواية التي ينقلها هشام بن الحكم في مجال فلسفة الحجّ عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ولينزع كلّ قوم من التجارات من بلدٍ إلىٰ بلدٍ وينتفع بذلك المكارىٰ والحمال»[١٢١].

وقد ورد في إثر هذه الرواية ما نصّه:

«لو كان كلِّ قوم إنّما يَتَكلّمونَ [يتكلون] علىٰ بلادهم... خربت البلاد وسقطتِ الجلب والأرباح»(١٢٢).

وفي رواية أخرىٰ يقول الإمام زين العابدين عليه السلام:

«حجّوا... تتّسع أرزاقكم ويصلح إيمانكم وتكفّوا مَؤنَةَ النّاس ومَؤنَةَ عيالاتكم»(١٢٣).

إنَّ الفقر الذي هو عامل من العوامل المتأصلة للكفر (١٢٤) وحَدَثٌ اقتصادي مغلوط والناتج عن ركود الفعّاليات الانتاجية، يمكن مداواته بحجّ بيت الله كما يقول الإمام علي عليه السلام:

«إنَّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون... وحجَّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر ويرحضان الذنب» (١٢٥).

وأيُّ تعبير هو أبلغ من قول الرسول صلى الله عليه وآله: «وحجّوا تستغنوا»(١٢٦) في وصف البعد الاقتصادي للحجّ وترغيب المسلمين للاستفادة الاقتصادية المشروعة من العبادة الكبرىٰ وهي الحجّ؟

إنَّ الاستغناء المادي للمسلمين هي حقيقة ترقىٰ على الاستقلال الاقتصادي، ذلك أنَّ الكثير من الأقطار التي توصلت إلى الاستقلال الاقتصادي بعد كفاح مرير وطويل، تكون مجبورة في معظم الأحايين علىٰ تحمّل الاكتفاء الذاتي النهائي للسياسة الاقتصادية السلبية التي تتّبعها، وكذلك الاقتصاد في الصرف وغضّ النظر عن كثير من الاحتياجات الشديدة التي يحتاجها المسلمون.

ولن يتمكن العالَم الإسلامي من الوصول إلىٰ الاكتفاء الذاتي النهائي والاستغناء التامّ إلّا بوضع برنامج محسوب ودقيق مستفيداً من الفرصة الإلٰهية في

الحجّ دون توجيه ضربة إلىٰ قدسية الحج ومعنوياته، فينتفع جميع المسلمين من هذه النعمة الإلٰهية الكبيرة.

تجلي نظام الأمّة والإمامة في الحجّ:

يسمّي القرآن الكريم جميع المسلمين علىٰ اختلاف عناصرهم وألوانهم وألسنتهم وتاريخهم وثقافتهم وأينما كانوا بالأمة الواحدة:

﴿إنّ هذه أمّتكم أمة واحدة وأنا ربّكم فاعبدون﴾[١٢٧].

إنَّ هذه الوحدة وتلك الرابطة ناشئة عن العقيدة المشتركة، والنظام المشترك والأهداف والطموحات المشتركة، التي تتجلّىٰ في أفعال المسلمين.

وهذه الوحدة قطعاً تحتاج إلى الانسجام والتوافق والمركزية والقيادة العميقة والواسعة، والتي يمكن بواسطتها وضع برنامج وتنظيم يقود الحركات والنهضات بكلّ أبعادها في حياة الأمّة علىٰ أساس العقيدة والنظام الإسلامي وطموحات المسلمين، آخذة بنظر الاعتبار كلّ الأرضيات والاستعدادات والامكانات الموجودة والمتاحة.

فهذه الحركة يجب أن تتمّ بنغم واحد منسجم وتحت لواء نظام واحد وعلىٰ خطّ سير واحد مشتملة على الأبعاد المختلفة للأمّة، وتحتاج كذلك إلىٰ تمرين وتعوُّدٍ مستمر، والإسلام يؤكّد عدم إمكانية تحقيق نظام الأمّة والإمامة إذا خلا هذا التعليم من النظام المذكور، ومن جهة أخرىٰ فهو يعدُّ العبادة الجماعية عاملاً مؤثّراً لذلك. إنَّ أداء الفرائض اليومية وصلاة الجمعة والعيد علىٰ هيئة جماعية اجتماعية وكذلك إقامة مراسيم الحجّ، كلّها مركز تعليم كبير لهذا التشكّل والانسجام والتحرّك باتّجاه الأهداف المشتركة.

ويمكن استشفاف ميزان التجلّي لروح الإمامة في الحجّ عبر رواية ينقلها لنا

مفضل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول:

«ثمّ إنّي أُخبرك أنّ الدين وأصل الدين هو رجلٌ وذلك الرجل هو اليقين والإيمان وهو إمام أمّته أو أهل زمانه فمن عرفه عَرَف الله ودينه ومن أنكره أنكر الله ودينه ومن جهله جهل الله ودينه ولا يعرف الله ودينه وحُدوده وشرايعه بغير ذلك الإمام فذلك إنّ معرفة الرجال دين اللهِ... وأخبرك أنّي لو قلت أنّ الصلوة الزكوة وصوم شهر رمضان والحجّ والعمرة والمسجد الحرام والبيت الحرام والطهور والاغتسال من الجنابة، وكلّ فريضة كان ذلك هو النبي الذي جاء من عند ربّه لَصَدقتُ لأنّ ذلك كُلّه إنّما تُعرف بالنبيّ ولو لا معرفة ذلك النبيّ والإيمان به والتسليم له ما عرف ذلك فهذا كلّه ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم... إنّما هو الرجل... من يطعِ الله الرسول فقد أطاع الله»[١٢٨].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَن حجَّ ولم يزرني فقد جفاني»[١٢٩].

وحين لمحَ الإمام الباقر عليه السلام جموع الطائفين قال[١٣٠]:

«أُمروا أن يتطوفّوا بهذا ثمّ يأتونا فيُعرّفوننا مودَّتهم ثمَّ يُعرضوا علينا نَصرهم».

وكأنّي بالحجّ عند انتهائه بداية لتحرّك الأمّة وقيادة الإمام، حيث تضع الأمّة كلّ إمكاناتها وقدراتها تحت تصرّف القيادة، وذلك بعد اكتسابها القوّة والطاقة من مناسك الحجّ، حتّىٰ تجعل الأمّة من الإمام منتصراً وظافراً وهو عين ما يفعله الإمام تجاه أُمّته أيضاً.

الهوامش :

(١) «ليس شيء أفضل من الحجّ إلّا الصلاة، وفي الحجّ هنا صلاة»، علل الشرايع: ١٥٦.
وسائل الشيعة ٨: ٧٧، الحديث ٢.
(٢) و(٣) جواهر الكلام ١٧: ٢١٤.
(٤) قال الباقر عليه السلام: «بُني الإسلام علىٰ خمس: علىٰ الصلاة والزكاة والحجّ والصوم والولاية»، وسائل الشيعة ١: ٧ و٨، أُصول الكافي ١: ٣١٥، المحاسن للبرقي: ٢٨٦.
(٥) تحرير الوسيلة ١: ٣٧٠، وسائل الشيعة ٨: ١٩، ٢١.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) «قال الصادق عليه السلام في تفسير قول الله عزّوجلّ: ﴿ومن كفر فإنّ الله غني عن العالمين﴾ يعني من ترك». وسائل الشيعة ٨: ٢٠.
(٨) و(٩) جواهر الكلام ١٧: ٢١٤.
(١٠) «قال الصادق عليه السلام: ما يعدله شيء»، وسائل الشيعة ٨: ٧٧ و٧٨، الحديث ٣ و٧.
(١١) مستدرك الوسائل كتاب الحجّ، الباب ٢٤، الحديث ٢٢ و ٢٤، صحيح مسلم ٤: ١٠٧.
(١٢) وسائل الشيعة ٨: ٧٩، الحديث ١، التهذيب ١: ٤٥١.
(١٣) ثواب الأعمال: ٢٧، وسائل الشيعة ٨: ٨٣، الحديث ١٥.
(١٤) المصدر نفسه: ٧٩، الحديث ١.
(١٥) من لا يحضره الفقيه ١: ١٥٩، علل الشرايع: ٣٩٩ـ٤٠٦.
(١٦) ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبّل منّا إنّك أنت السميع العليم﴾، البقرة: ١٢٧.
(١٧) ﴿وعهدنا إلىٰ إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود﴾، البقرة: ١٢٥.
(١٨) في صحيح البخاري: «حجّ النبيّ صلى الله عليه وآله قبل النبوّة وبعدها، ولم يعرف عددها ولم يحجّ بعد الهجرة إلّا حجّة الوداع». وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: حج رسول الله صلى الله عليه وآله عشرين حجّة مستقرة.
(١٩) سفينة البحار ٢: ٣٠٦.
(٢٠) نقل الكليني في الكافي والطوسي في التهذيب والشيخ العاملي في وسائل الشيعة خبر حجّة الوداع عن الإمام الصادق عليه السلام، وكذلك نقله مسلم وأبو داود وابن ماجه والدارمي والنسائ والترمذي في صحاحهم وسننهم عن الجابر عن الإمام الصادق عليه السلام.
(٢١) ﴿لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ﴾، البقرة: ٢٥٦.
(٢٢) فروغ أبديّت (باللغة الفارسية): ٣٨٨.
(٢٣) نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة ٥: ٣٥٩.

(٢٤) فروع الكافي ١: ٢٣٧ ـ ٢٤١، علل الشرايع: ١٣٨، التهذيب ١: ٤٥٢.
(٢٥) و(٢٦) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٩٢.
(٢٧) علل الشرايع: ٤٠٣.
(٢٨) و(٢٩) وسائل الشيعة ٨: ٦، سورة الحجّ: ٢٧.
(٣٠) ﴿وإذ جعلنا البيت مثابةً للنّاس وأمناً﴾، البقرة: ١٢٥. ﴿فلنولينّك قبلةً ترضاها﴾، البقرة: ١٤٤.
(٣١) و(٣٢) و(٣٣) و(٣٤) «فهو شعبة من رضوانه وطريق يؤدّي إلىٰ غفرانه منصوب علىٰ اسواء الكمال ومجمع العظمة والجلال خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام». فروع الكافي ١: ٢١٩.
(٣٥) سورة الحجّ: ٢٧.
(٣٦) وسائل الشيعة ٨: ٥، الحديث ٩.
(٣٧) المصدر نفسه، الحديث ٦.
(٣٨) نقلاً عن كتاب الحجّ، للدكتور علي شريعتي.
(٣٩) «والخامسة الحجّ وهي الشريعة». علل الشرايع.
(٤٠) ﴿ولنسئلنَّ المرسلين﴾، الأعراف: ٦٧.
(٤١) ﴿ثمّ لتسئلنّ يومئذ عن النعيم﴾، التكاثر: ٨.
(٤٢) بحار الأنوار ٩٩: ٥.
(٤٣) المصدر نفسه.
(٤٤) «قال عليّ عليه السلام: لا تتركوا حجّ بيت ربّكم فتهلكوا»، ثواب الأعمال: ٢١٢.
(٤٥) تفسير القمّي: ٤٤٨، معافي الأخبار: ٢٢٢، بحار الأنوار ٩٩: ٦.
(٤٦) الذاريات: ٥٠.
(٤٧) تفسير القمّي: ٦٨٢، بحار الأنوار ٩٩: ٦.
(٤٨) المنافقون: ١٠.
(٤٩) المائدة: ٩٧.
(٥٠) «قال الصادق عليه السلام: لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»، الكافي ٤: ٢٧١، الحديث ٢٤.
«فرض الله الحجّ تقوية للدين»، نهج البلاغة، المواعظ والحكم، رقم ٢٤٤.
(٥١) سورة ق: ٣٧.
(٥٢) بحار الأنوار ٣: ٣٠٣، الحديث ٤١.
(٥٣) مستدرك الوسائل ٢: كتاب الحجّ، الباب ١٧، الحديث ٥، سفينة البحار ٢: ٧١.
(٥٤) تفسير الميزان ٥: ٤٣٤.
(٥٥) «قال الإمام زين العابدين عليه السلام: ولا يصاب (الدين) إلّا بالتسليم»، بحار الأنوار ٣: ٣٠٣، الحديث ٤١.
(٥٦) و(٥٧) تأريخ اليعقوبي ١: ٩٠، أُصول الكافي ١: ٣٣٢.

(٥٨) و(٥٩) تفسير الميزان ١: ٣٠١.
(٦٠) جامع السعادات ٣: ٣٣٢.
(٦١) البقرة: ١٩٦، آل عمران: ٩١.
(٦٢) مصباح الشريعة، الباب ٢١١.
(٦٣) مستدرك الوسائل ٢: كتاب الحجّ، الباب ١٧، الحديث ٥.
(٦٤) المحجّة البيضاء ٢: ٢٠١.
(٦٥) و(٦٦) المصدر نفسه.
(٦٧) سنن أبي داود ٢: ٥، نقلاً عن المحجّة البيضاء ٢: ١٩٧.
(٦٨) مجمع الزوائد ٣: ٢٢٣.
(٦٩) «قال رسول الله ﷺ: أمراء يكونون بعدي يميتون الصلاة»، سنن الترمذي.
(٧٠) «النظافة من الإيمان ـ إنّ الله... نظيف يحبّ النظافة»، سنن الترمذي، ٤١.
(٧١) «صنفان من أمّتي إن صلحا أصلحت الأمّة وإذا فسدا فسدت أمّتي، قيل: يا رسول الله من هما؟ قال: الفقهاء، والأمراء»، سفينة البحار ١: ٣٠. «وقال ﷺ: ويل للأمراء، ويل للفقهاء»، مسند أحمد بن حنبل ٢: ٥٢.
(٧٢) البقرة: ١٢٥.
(٧٣) نهج البلاغة، الخطبة ١.
(٧٤) من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٣٥، الخصال للصدوق ﷺ ٢: ٦١.
(٧٥) آل عمران: ٩٧.
(٧٦) وسائل الشيعة ٨: ٢١.
(٧٧) المحجّة البيضاء ٢: ١٤٥.
(٧٨) وسائل الشيعة ٨: ٢١.
(٧٩) علل الشرايع: ٤٠٥، الحديث ٦.
(٨٠) «قال الصادق ﷺ: لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة»، الكافي ٤: ٢٧١.
(٨١) عيون أخبار الرضا: ٢٣٦.
(٨٢) التوبة: ١٢٣.
(٨٣) نهج البلاغة، المواعظ والحكم، رقم ٢٤٤.
(٨٤) الكافي ٤: ٢٧١، الحديث ٤.
(٨٥) سورة إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.
(٨٦) نهج البلاغة، رقم ٥٣.
(٨٧) في فتح مكّة كسر رسول الله ﷺ الأصنام وخرجها من الكعبة.
(٨٨) ثواب الأعمال: ٢١٢. بحار الأنوار ٩٩: ١٩.

(٨٩) نهج البلاغة، الكتاب رقم٤٧.
(٩٠) علل الشرايع، نقلاً عن بحار الأنوار ٩٩: ١٩.
(٩١) علل الشرايع: ٤٠٨ ـ ٤٠٩، الحديث٦.
(٩٢) من لا يحضره الفقيه ٢: ٣٥٩، علل الشرايع: ٥٧، تفسير العياشي ٢: ٢٥٤.
(٩٣) التوبة: ١١٢.
(٩٤) فروع الكافي ١: ٣٣٢.
(٩٥) سنن ابن ماجة، المناسك ٥، سنن النسائي، الحجّ: ٤.
(٩٦) سنن ابن ماجة، المناسك: ٤٤.
(٩٧) صحيح البخاري، كتاب الجهاد: ٦٢.
(٩٨) مسند أحمد بن حنبل ٥: ٢٠٠.
(٩٩) المائدة: ٩٧.
(١٠٠) البقرة: ١٢٥.
(١٠١) «قال الصادق عليه السلام: إنّ إبراهيم لما خلف إسماعيل بمكّة عطش الصبي وكان فيما بين الصفا والمروة شجر فخرجت أمّه حتّىٰ قامت علىٰ الصفا فقالت: هل بالوادي من أنيس؟ فلم يجبها أحد فمضت حتّىٰ انتهت إلىٰ المروة فقالت:...حتّىٰ صنعت ذلك سبعاً فأجرىٰ الله ذلك سنّة». علل الشرايع: ٤٣٢.
(١٠٢) المصدر نفسه.
(١٠٣) المصدر نفسه.
(١٠٤) البقرة: ١٩٨.
(١٠٥) الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٥.
(١٠٦) «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: استفرهوا ضحاياكم فإنّها مطاياكم علىٰ الصراط»، علل الشرايع: ٤٣٨.
(١٠٧) الحجّ: ٣٧.
(١٠٨) علل الشرايع ٢: ١٢٠.
(١٠٩) المصدر نفسه.
(١١٠) نقل البخاري عن النبيّ صلى الله عليه وآله: لاتقوم الساعة حتّىٰ لاتحجّ البيت. صحيح البخاري، كتاب الحجّ: ٤٧.
(١١١) «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر: وحجّ حجّةً لعظائم الأُمور»، الخصال ٢: ٣٠٠ ـ ٣٠٣.
(١١٢) تاريخ اليعقوبي ١: ٩٢.
(١١٣) ﴿ولنبلونّكم حتّىٰ نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونَبلُوَ أخباركم﴾، سورة محمّد: ٣١.
(١١٤) العنكبوت: ٢.
(١١٥) البقرة: ١٥٥.
(١١٦) البقرة: ١٢٤.

(١١٧) ﴿وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً﴾، الأنفال: ١٧، ﴿إنّ هذا لهو البلاء المبين﴾، الصافّات: ١٠٦.
(١١٨) ﴿وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم﴾، الأعراف: ١٤١.
(١١٩) نهج البلاغة، الخطبة ١٩٢، (القاصعة).
(١٢٠) سنن أبي داود ١١:
(١٢١) و(١٢٢) وسائل الشيعة ٨: ٩.
(١٢٣) المصدر نفسه.
(١٢٤) «قال الصادق عليه السلام: كاد الفقر أن يكون كفراً»، سفينة البحار ٢: ٣٧٨.
(١٢٥) نهج البلاغة، الخطبة ١١٠.
(١٢٦) من لا يحضره الفقيه ٢: ٩٤.
(١٢٧) سورة الأنبياء: ٢١.
(١٢٨) مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار: ١٣ ـ ١٤.
(١٢٩) و(١٣٠) مستدرك الوسائل. كتاب الحجّ: ١٨٩.